الفصل السابع عشر
إلهة الحرب

أسرعت وطراد بن صطّام إلى الراية المقدسة التي ارتفعت فوق الهوادج المهاجرة واتخذنا طريقنا بين الحشود الهائجة حيث امتزج أزيز الرصاص وأصوات النساء والأطفال مع أنين وشكاوي الجمال المثقلة. ولدى اقترابنا لاحظنا مجموعة من النساء السائرة على الأقدام تشق طريقها نحو الراية وتلوح بأغطية رأسها وتغني بصوت عال. كانت النساء يواكبن صبية تتهادى في مشيتها في وسطهن. إنها تويما التي يشع وجهها الجميل الصافي بالصحة، وعيناها الهادئتان تتألقان تحت رموشهما الطويلة. رمقت بنظراتها السريعة طرّاد بن صطّام الذي اختارها من بين كل فتيات الرولة لشرف الركوب في المركب، وعندما عرفتني غمزني خداها بابتسامة.

عندما وصلت تويما ومرافقاتها إلى الجمل الذي يحمل الرمز القبلي (وهو جمل قوي ضخم يقوده عبد) جرت بجانبه لتفسح لنفسها مكاناً. وارتفع غناء النساء والتلويح بالأيدي إلىنوبة من السعادة. وفجأة ابتعدت تويما عن مرافقاتها، وبقفزة سريعة أمسكت بحزام كتف الجمل وصعدت بخفة إلى ظهره ثم إلى المركب. وفي الزاوية الأمامية اليسرى من الهيكل المقدس حيث يوجد مقعد

obeikandl.com

ومسند للقدمين. جلست تويما كملكة الصحراء فوق رعاياها، ثم خلعت غطاء رأسها وتساقطت ضفائرها الرئعة فوق كتفيها. وبإشارة منها صعدت مرافقاتها إلى هوادجهن بعد أن مشين بجانب الجمال لمسافة قصيرة، وأثناء ذلك سمعت من وسط الجماهير المهاجرة أصوات الطلقات التي أطلقت ابتهاجاً. وسرعان ما انطلق الفرسان إلى الأمام من كل الاتجاهات. تجمع الفرسان وانطلقوا بكتلة واحدة نحو المركب وعلى رأسهم فارس، وسط هدير الحوافر وبريق البنادق، وارتفع غناء الرجال الهائج عندما احتشدوا حول ملكتهم.

ونهضت تويما ووقفت منتصبة في الهيكل وتغيرت ملامحها إلى نشوة من البهجة. وفجأة وضعت يديها على خنجرها ومزقت ثوبها وانطلقت في أغنية بهيجة. وارتفعت وصدرها عار تماماً مجهدة جسمها اللدن حتى توازنت فوق المركب رافعة باقة من ريش النعام الأبيض كالثلج. وبدت تويما كإلهة ـ أجمل وأشجع فتيات قبيلتها العظيمة. ألقت على مسامع الشباب كلمات بليغة عاطفية فألهبتهم بحماسها الحربي، وحثتهم على تذكر الأبطال الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى هذا المركب بقيود خيولهم الحديدية حتى لا يتخلوا عن ملكتهم، ليدافعوا عنها حتى النفس الأخير.

تركزت عينا فارس بنشوة على تويما فوق عرشها العالي ولمع في يده سيف (جيدوا) وهو بطل عظيم من أبطال الرولة. رفع النصل إلى شفتيه بكلتا يديه وقبله وصاح: «يا تويما! يا حارسة روحي! ثم انعطف بحصانه وانطلق مع فرسانه».

أخذ طراد بن صطّام رسن جمل تويما من العبد ومشى بها أمام القبيلة المهاجرة. وعلى الرغم من كل الكرب الشديد سرت في الجميع روح البهجة. إنه يوم عيد؛ لأنه أصبح للدولة ملكة من جديد ـ عذراء في المركب المقدس، وتحت قيادتها الرمزية تدافعوا إلى الأمام إلى مصيرهم المجهول.

حلّ المساء وخيّم الجميع ثانية ولكنهم بدأوا مسيرتهم من جديد مع خيوط الفجر الأولى. طافت السيارات المسلحة حول القطعان المنتشرة وحرست

جوانب الهجرة العظيمة. وعلى الرغم من أننا سافرنا بصفوف متراصة فقد كان من المحتم في هذا الظروف أن بعض العائلات أو بعض مجموعات العائلات ستتخلف مع قطعانها أو ستسافر منفردة. إنها في هذه الحالة فريسة سهلة للعدو الذي كنا نحس بوجوده من الهجمات المفاجئة، التي قامت بها يومياً العصابات المحمولة القوية، وظهور عدد من السيارات المحاربة العدوة.

* * *

obeikandl.com